سياسة الحسن قبل الحرب

١ - وضع الحسن رضى الله عنه لبيعته صيغة خاصة وقبض يده عما أريد معها من قيود ، وأرادها هو على السمع والطاعة والحرب لمن حارب والسلم لمن سالم فكان عند ظن المعجبين ببلاغته الإدارية بما ذكر من الحرب ولوح بالسلم فأرضى الفريقين من أحزاب الكوفة دعاة الحرب والمعارضين ، وكان لديه من الوضع العام فى الكوفة ما يكفيه نذيراً لاتخاذ مثل هذه الحيطة الحكيمة لوقت ما .

٢ - زاد الحسن رضى الله عنه المقاتلة مائة مائة ، وكان ذلك أول شىء أحدثه حين الاستخلاف فتبعه الخلفاء من بعده عليه[1]

٣ - وقد أمر الحسن بقتل رجلين كانا يتجسسان لعدوه عليه وهدد بتنفيذ هذا الحكم روح الشغب التى كان يستجيب لها عناصر كثيرة فى الكوفة والبصرة .

قال المفيد رحمه الله : (لما بلغ معاوية وفاة أمير المؤمنين وبيعة الناس ابنه الحسن دس رجلا من حمير إلى الكوفة ورجلا من بنى القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور ، فعرف بذلك الحسن فأمر

(١) شرح النهج لابن أبى الحديد .

obeikandi.com

باستخراج الحميرى من عند لحام بالكوفة فأخرج وضرب عنقه[١]] .

ويؤيد أبو الفرج الأصفهانى ما ذكره المفيد ، ثم قال : (وكتب الحسن إلى معاوية : أما بعد فإنك دسست إلىَّ الرجال كأنك تحب اللقاء لا أشك فى ذلك فتوقعه إن شاء الله ، وبلغنى أنك شمّتَّ بما لم يشمّت به ذوو الحجى (يشير إلى ما تظاهر به معاوية من الفرح بوفاة أمير المؤمنين عليه السلام) ، وإنما مثلك فى ذلك كما قال الأول :

فإنّا ومن قد مات منا لكالذى   يروح ويمسى فى المبيت ليغتدى

فقل للذى يبغى الخلاف الذى مضى   تجهّز لأخرى مثلها فكأن قَدِ

٤ - تمهله عن الحرب برغم إلحاح الأكثرين ممن حوله على البدار إليها منذ تسلمه الحكم فى الكوفة

٥ - استدراجه معاوية عن طريق التبادل بالرسائل إلى نسيان موقفه المتأرجح الذى لم تقو على دعمه الدعاوى الفارغة الكثيرة ، فإذا بإضمامة من الغلطات هى أجوبة معاوية للحسن وهى التى كشفت للناس معاوية المجهول ومهدت للحسن معذرته تجاه الرأى العام فى حربه لمعاوية ، وإذا بمعاوية الفريق المغلوب فى منطق العقلاء وإن يكن الغالب بعد ذلك فى منطق القوة .

واستنكر عامل الإمام على البصرة عبد الله بن عباس إرسال معاوية بعثة العيون والجواسيس إلى البصرة ، وأرسل له رسالة كما أرسل أخرى إلى الإمام الحسن يشجعه على مقاومة معاوية ، وقد جاء فى هذه[٢] الرسالة : « أما بعد

---

(١) كشف الغمة - والبحار - والإرشاد .   (٢) شرح ابن أبى الحديد .

obeikandl.com

فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد على عليه السلام ، فشمر للحرب وجاهد عدوك وقارب أصحابك واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه ، ووَلِّ أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذ كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا فى حرب أوإصلاح بين الناس ، فإن الحرب خدعة ولك فى ذلك سعة إذ كنت محارباً ما لم تبطل حقًّا . .

واعلم أن عليًّا أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم فى الفىء وسوى بينهم فى العطاء فثقل عليهم ، واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله فى ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله ؛ فلما وحد الرب ومحق الشرك وعز الدين أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعز فى الدين إلا الأتقياء الأبرار توسموا بسيمى الصالحين ليظن المسلمون بهم خيراً ، فما زالوا بذلك حتى شركوهم فى أماناتهم وقالوا حسابهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخواننا فى الدين وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم والله ما زادهم طول العمر إلا غيًّا ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلاَّ مقتاً ، فجاهدهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفاً ، فإن عليًّا أباك لم يجب إلى الكوفة حتى غلب على أمره فأجاب وإنهم يعلمون أنه

أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ، ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام » .

واحتوت هذه الرسالة على أمور مهمة :

١ – أن ابن عباس عرض على الإمام أن يولي الأشراف وذوى النفوذ ويشرى من الظنين دينه ليقضى بذلك على روح التفرقة ، ويكون الناس جماعة واحدة حتى يتمكن من مناجزة معاوية ومقاومته ، وغفل ابن عباس أن ذلك يتناف مع السياسة الرشيدة التى انتهجها أهل البيت فإنها بنيت على الحق الخالص .

٢ – واشتملت هذه الرسالة على أهم الأسباب الوثيقة التى أدت إلى خذلان الإمام فى دور خلافته ونجاح معاوية فى عهد حكومته . فإن الإمام قد انتهج سياسة العدل والمساواة فسوى بين المسلمين فى العطاء فلم يقدم أحداً على أحد فى العطاء عملا بما أمر به الإسلام ، ونصت عليه مبادئه العادلة التى محت التفاوت بين الأبيض والأسود وهدمت الحواجز بين الغنى والفقير وجعلت « الناس سواسية كأسنان المشط كلهم من آدم وآدم من تراب » لا ميزة لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل والكفاءة . سار الإمام علىّ رضى الله عنه على هذه السياسة العادلة ومشى على هذه الخطة الواضحة حتى ضرب الرقم القياسى للمساواة والعدل ، فمن بوادر

عدله أنه ساوى بين سيدة قرشية وبين أمة فى العطاء فغاظ القرشية ذلك وأقبلت إليه وهى محنقة مغيظة تقول بحرارة :

« أتساوى فى العطاء بينى وبين هذه الأمة » .

فرمقها الإمام بطرفه وأخذ بيده قبضة من التراب وجعل يقلبه بيده وهو يقول : « لم يكن بعض هذا التراب أفضل من بعض » .

لقد ثقل على الناس هذه المساواة ، وشق عليهم هذا العدل لأنهم لا يتطلبون إلا مصالحهم الخاصة ، فلذا زهدوا فى حكومته وخضعوا لحكومة معاوية الذى لا هدف له إلا تحقيق رغباته .

٣ – وأعرب ابن عباس فى رسالته عن دراسته الوثيقة لنفسيات الأمويين ومعرفته بما انطوت عليه قلوبهم ، فلقد بيَّن أنهم مجموعة من الملحدين ، فإذا حاربهم الإمام فإنما يحارب من حارب الله ورسوله حينما بزغ نور الإسلام ، فإنه لما كتب الله النصر لدينه ، وقهر سلطان الإسلام العرب دخلت أمية فيه ، لكن لا إيماناً منهم بقضيته بل خوفاً من حر السيف ورهبة الموت ، فكانوا يتظاهرون باعتناق الإسلام فيقرأون آيات الذكر الحكيم ، ولكن قراءة عن غير إيمان واعتقاداً بمبادئه ، وكانوا يقيمون الصلاة ولكنهم يؤدونها وهم كسالى ويقيمون فرائض الإسلام ولكن عن كره ، ولما رأوا أن خطتهم لا تضمن لهم النجاح ولا تكفل لهم السعادة إذ لا يعز فى هذا الدين إلا الأبرار الصلحاء لقوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أظهروا تدليساً ورياءً ، الصلاح والتقى والإيمان ، وأضمروا فى دخائل نفوسهم الشرك والنفاق والحقد على

الإسلام ، وظلوا على هذه الحال يظهرون الطاعة لله والانقياد لأوامره وأحكامه حتى أشركهم المسلمون فى أمورهم وشئونهم ، ولكن المسلمين مع ذلك كانوا مرتابين منهم شاكين فى أمرهم على ريب من صدقهم .

٤ – واحتوت هذه الرسالة على حث الإمام وتحريضه لمحاربة هؤلاء المنافقين والمارقين من الدين ، ومواصلة حربهم حتى النفس الأخير لتستريح الأمة من شرهم ، وتسلم من مكرهم وغوائلهم ، ولا شك أن هذه الرسالة كان لها موقع حسن فى نفس الإمام ، فقد حفزته إلى مناجزة معاوية ومقاومته وإعلان الحرب عليه(١) .

رسالة الإمام إلى معاوية :

وأرسل الإمام رسالة أخرى إلى معاوية يدعوه إلى مبايعته وطاعته والدخول فيما دخل فيه المسلمون ، وقد أرسل الرسالة بيد شخصين من عيون المؤمنين وثقات الإسلام ، وهما الحارث بن سويد التميمى وجندب الأزدى ، وهذه نص الرسالة(٢) :

« من الحسن بن على أمير المؤمنين ، إلى معاوية بن أبى سفيان – سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنّة

---

(١) حياة الإمام الحسن بن على ، للأستاذ باقر شريف .

(٢) شرح ابن أبى الحديد .

للمؤمنين ، وكافة للناس أجمعين (لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين) ، فبلغ رسالات الله ، وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا دان ، وبعد أن أظهر الله به الحق ومحق به الشرك ، وخص به قريشاً خاصة فقال له : « وإنه لذكر لك ولقومك » ، فلما توفى تنازعت سلطانه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه ، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش ، وأن الحجة فى ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد فأنعمت لهم وسلمت إليهم ، ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج ، فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجتهم وطلب النصف (الإنصاف) منهم باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ، ومراغمتنا ، والعنت منهم لنا ، فالموعد الله وهو الولى النصير .

ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا ، وسلطان بيتنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب فى ذلك مغمزاً يثلمونه به أن يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله . . لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتابه ، والله حسيبك فسترد وتعلم

لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقينّ عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد ، إن عليًا لما مضى لسبيله ، رحمة الله عليه يوم قبض ، ويوم منّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يبعث حيًّا ، وولّانى المسلمون بعده ، فاسأل الله ألا يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة .

إلى أن قال : فدع التمادى فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ، ومن له قلب منيب ، واتق الله ودع البغى ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله ما لك خير فى أن تلقى من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منك ، ليطفئ الله النائرة (العداوة والبغضاء) بذلك ويجمع الكلمة ، ويصلح ذات البين ، وإن أنت أبيت إلا التمادى فى غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين» .

رد معاوية على الإمام الحسن :

« أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده فصرحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر ، وأبى عبيدة الأمين ، وصلحاء المهاجرين فكرهت لك ذلك إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها ، رأت قريشاً

أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار ، وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا (لم يقصروا) ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذَبَّهُ ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفيء لسلمت لك الأمر بعد أبيك ، ولكن قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سنًّا ، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني ، فادخل في طاعتي ، ولك الأمر من بعدي ، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج من العراق شئت معونة لك على نفقتك يجبيها أمينك ، ويحملها لك في كل سنة ، ولك ألا يستولى عليك بالإساءة ، ولا تقضى دونك الأمور ، ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء ، والسلام » .

وكما يقول الدكتور أحمد رفاعي في كتابه « عصر المأمون » إن هذه الرسالة حوت بعض المغالطات ، فقد جاء فيها : « إن هذه الأمة لما اختلفت بينها ، لم تجهل فضلكم ، ولا سابقتكم للإسلام ، ولا قرابتكم من نبيكم..إلخ »

ومن يتتبع الأحداث التي وقعت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عرف أن العترة الطاهرة واجهت بعد النبي صلى الله عليه وسلم أشق المحن والخطوب فإن

الجرح لما يندمل والرسول عليه الصلاة والسلام لما يقبر استبد القوم بالأمر ، وعقدوا اجتماعهم فى السقيفة ، وتغافلوا عترة نبيهم ، وكان لهذا كله الأثر الذى ظهر بعد خمسين عاماً من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تابعت عليهم الخطوب فإذا المسلمون فى موكب جهير يجوب البيداء من بلد إلى بلد وهم يحملون رءوس أبنائه على أطراف الرماح .

رسالة أخرى من معاوية للإمام :

وأرسل معاوية إلى الإمام رسالة يحذر فيها من الخلاف عليه ويمنيه بالخلافة من بعده إن تنازل له عن الأمر .

قال :

أما بعد ، فإن الله يفعل فى عباده ما يشاء لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيتك على أيدى رعاع من الناس وأيس من أن تجد فينا غميزة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه ، وبايعتنى وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بن قيس ابن ثعلبة :

وإن أحد أسدى إليك أمانة ... فأوف بها تدعى إذا مت وافيا
ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ... ولا تجفه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى فأنت أولى الناس بها والسلام .

ويقول بعض رجال التاريخ إن هذه الرسالة المشتملة على مثل هذا اللون

openeikandil.com

من التهديد والتوعيد إنما بعثها معاوية إلى الإمام الحسن بعدما اتصل اتصالا وثيقاً برجال العراق وقادته وضمنوا له تنفيذ خطته فالغالب أنه لم يكتب ذلك إلا بعد الاتصال بزعماء العراق وانقطاع أمله من إجابة الحسن له .

آخر رسالة للإمام الحسن :

لم يكترث الإمام لتهديد معاوية وأجابه بجواب يلمس فيه الحزم :

« أما بعد فقد وصل إلى كتابك تذكر فيه ما ذكرت وتركت جوابك خشية البغي عليك وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله ، وعليّ إثم أن أقول فأكذب والسلام . . »

وكانت هذه الرسالة هي آخر الرسائل التي دارت بين الإمام ومعاوية . وعلى أثرها علم معاوية أنه لا يجديه خداعه وأباطيله ، ولا تنفع مغالطاته السياسية وعرف أن الإمام مصمم على حربه فاتجه إلى هذا الطريق بل استعجل الحرب :

لأنه اتصل اتصالا وثيقاً بزعماء العراق ورؤساء القبائل ومناهم بالوظائف فأجابوه سرًّا إلى تنفيذ أغراضه ويدل على ذلك المذكرة الآتية التي كتبها إلى عماله :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان ابن فلان ، ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو – أما بعد – فالحمد لله الذى كفاكم مؤونة عدوكم وقتل خليفتكم : إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلى بن أبى طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله فترك أصحابه متفرقين

مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد أصبتم بحمد الله الصبر وبلغتم الأمل وأحل الله أهل البغي والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والذي يلفت النظر في هذه الرسالة أن ينسب معاوية البغي والعدوان للإمام علي ، مع أن جنود معاوية هم الباغون ، ولقد قتلوا الصحابي الجليل عمار بن ياسر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : (تقتلك الفئة الباغية) كما يلفت النظر شماتة معاوية في الإمام علي رضي الله عنه .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى عماله وولاته قاموا بتحريض الناس وحثهم على الخروج والاستعداد لحرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبطه ، ولما توافرت له القوة الهائلة من الجند والعسكر وأصحاب المطامع الذين لا يقدسون سوى المادة زحف بهم نحو العراق وتولى بنفسه القيادة العامة للجيش ، وأناب عنه في عاصمته الضحاك بن قيس الفهري وطوى معاوية البيداء بجيشه الجرار ، فلما انتهى إلى « جسر منبج »[1] وعلم الإمام الحسن رضي الله عنه بذلك أمر بعض أصحابه أن ينادي في العاصمة « الصلاة جامعة » ويقصد بذلك جمع الناس في جامع البلد فنودي بذلك واعتلى الإمام المنبر وقال :

« أما بعد . فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون

---

(١) جسر منبج ، بناه كسرى ، والمسافة بينه وبين حلب يومان .

إلا بالصبر على ما تكرهون ، إنه بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك : اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم فى النخيلة(١) حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون » .

ولما أنهى عليه السلام خطابه وجم الحاضرون وأخرست ألسنتهم واصفرت ألوانهم ، كأنهم قد سيقوا إلى الموت ، فلم يجب الإمام أحد منهم كل ذلك لخوفهم من أهل الشام وحبهم للسلم وإيثارهم للعافية ، وكان هذا التخاذل فى بداية الدعوة إلى جهاد العدو ينذر بالخطر ويدعو إلى التشاؤم واليأس .

ولما رأى ذلك عدى بن حاتم الطائى وقف منكراً سكوتهم وتخاذلهم المفضوح قائلا : « أنا عدى بن حاتم ، سبحان الله ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ، أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدعة ، فإذا جد الجد راوغوا كالثعالب ، أما تخافون مقت الله . . . »

ثم التفت إلى الإمام مظهراً له الطاعة والامتثال قائلا : « أصاب الله بك المراشد وجنبك المكاره ، ووفقك لما يحمد ورده وصدره ، قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك وسمعنا لك وأطعنا فيما قلت ورأيت » .

ثم(٢) أظهر إلى المجتمعين عزمه على الخروج لحرب معاوية فوراً قائلا : « وهذا وجهى إلى معسكرنا ، فمن أحب أن يوافى فليواف » ثم خرج من المسجد

---

(١) النخيلة موضع قريب من الكوفة وجاء فى معجم البلدان أن معاوية قتل الخوارج به لما ورد إلى الكوفة وفى ذلك يقول ابن الأصم راثياً :

إنى أدين بما دان الشراة به … يوم النخيلة عند الجوسق الحزب

(٢) ابن ابى الحديد .

وكانت دابته بالباب فركبها وخرج وحده من دون أن يلتحق به أحد وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه فانتهى إلى النخيلة فعسكر بها وحده ، واضطرب غيظاً وموجدة كل من الزعيم قيس بن سعد بن عبادة ، ومعقل بن قيس الرياحي ، وزيادة بن صعصعة التميمي ، لما رأوا عدم إجابة الجماهير فلاموهم على هذا التخاذل وبعثوا فيهم الروح إلى حرب عدوهم ومناجزته ، ثم التفتوا إلى الإمام وكلموه بمثل كلام عدى فى الانقياد والطاعة والامتثال لأمره ، فشكرهم الإمام على موقفهم وأثنى على شعورهم قائلا : « ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والنصيحة فجزاكم الله خيراً » .

وخرج الإمام عليه السلام فوراً لرد العدوان الأموى ، واستخلف فى عاصمته المغيرة بن نوفل بن الحرث ، وأمره بحث الناس على الجهاد وإشخاصهم إليه فى النخيلة ، ثم إلى « دير عبد الرحمن » فأقام به ثلاثة أيام ليلتحق به المتخلفون من جنده ، ورأى أن يرسل مقدمة جيشه للاستطلاع على حال العدو واختار فى مقدمة الجيش خلاصة أصحابه من الباسلين وكان عددهم اثنى عشر ألفاً ، وأعطى القيادة العامة إلى ابن عمه عبيد الله بن العباس ، وقبل أن تتحرك هذه الفصيلة من الجيش دعا الإمام قائدها العام عبيد الله فزوده بهذه الوصية .

« يا ابن العم إنى باعث معك اثنى عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر ، الرجل منهم يزيد الكتيبة ، فسر بهم ، وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك وأدنهم من مجلسك فإنهم بقية ثقات أمير

المؤمنين ، وسر بهم على شط الفرات ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحتبسه حتى آتيك فإنى على أثرك وشيكاً وليكن خبرك عندى كل يوم ، وشاور هذين قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس ، وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك فإن فعل فقاتله وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، فإن أصيب فسعد بن قيس على الناس » .

وتدل هذه الرسالة على اطلاع الإمام الحسن الوافر فى تدبير شئون الدولة فإن التوصية بالجيش بهذا اللون المشتمل على العطف والحنان والإطراء عليه بمثل هذا الثناء من أنهم بقية ثقات أمير المؤمنين خير دليل على ذلك .

وكان الإمام الحسن يقصد من ذلك تغذية معنوياتهم وإلهاب حماستهم والتأثير على عواطفهم ، ثم أوصاه بأن يلين لهم جانبه ويبسط لهم وجهه ويفرش لهم جناحه ويدنيهم من مجلسه ، وكان مقصد الإمام من ذلك إيتاء الثقة المتبادلة بين الجيش وقائده ، وهذه الثقة بدون شك ضرورية فى حرب تعوزها النظم العسكرية التى نعرفها اليوم .

على أن رجال التاريخ يتساءلون عن الحيثيات التى آثر بها الإمام الحسن عليه السلام عبيد الله بن عباس للقيادة ، وفى الجيش معه أعلام من سراة الناس ومن ذوى السوابق والذكريات المجيدة الذين لا يهضمون الخلق المزهو ولا الخشونة الآمرة الناهية فى الفتى الهاشمى الذى لا يزيدهم كفاءة ولا يسبقهم جهاداً ولا يفضلهم تقوى ولا يكبرهم سناً ، فقد كان عبيد الله بن عباس يوم قيادته لهذا الجيش فى التاسعة والثلاثين من عمره .

ويقول رجال التاريخ أيضاً إنه كان فى الجيش مثل « قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى » الرجل المعترف بكفاءته العسكرية وإخلاصه الصحيح لأهل البيت عليهم السلام وبأمانته .

ويجيب المغفور له الشيخ راضى آل ياسين بقوله : إن الحسن حين أراد عبيد الله للقيادة على المقدمة فرض عليه استشارة كل من قيس بن سعد وسعيد بن قيس ، كما هو صريح عهده إليه ، فخرج بذلك من الإيثار الذى يؤخذ عليه إذا كان هذا الإيثار تبعة يخاف منها على مصلحة الموقف وأصبحت القيادة — على هذا الأسلوب — شورى بين ثلاثة هم أليق رجاله لها ، أما تقديم قيس على صاحبيه وعلى غيرهما من صحابة وزعماء وإيثاره بالقيادة وحده فقد كان فى حينه مظنة لتنافس الأكفاء الآخرين الذين كان يلفهم جناح هذا الجيش وفى هؤلاء الشخصيات المعروفة فى قيادتها الميادين وفى إخلاصها وجهادها وسوابقها أمثال أبى أيوب الأنصارى وحجر بن عدى الكندى وعدى بن حاتم الطائى وأضرابهم ، لذلك كان تقديم ابن عم الإمام بل ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم وتعيينه (اسما) ثم الاستفادة من رأى قيس وصاحبه تخلصاً لبقاً لا ينبغى الخلاف فيه والتنافس عليه .

ثم إنه كان من الاحتياطات الرائعة للوضع العام يوم ذاك ألا يكون القائد فى جبهة الحسن إلا هاشمياً ، وتفسير ذلك أن صورة التخاذل التى دارت مع قضية الحسن فى الكوفة كانت لا تزال نذيرة تشاؤم كثير فى حساب الحسن عليه السلام ، وكان عليه أن يتخذ من التدابير الممكنة كل

ما يدفع عنه ، فى حاضره وفى مستقبله ، لوم الناس وتخطئتهم ونقدهم ، ومن السهل على الناس أن يتسرعوا إلى التخطئة والنقد متى وجدوا موضعاً للضعف أو منفذاً إلى الفشل والحرمان ، وكان من المنتظر أن يقولوا فيما لو فشلت قضية الحسن فى مسكن إنه لو كان القائد من أهله لكان أولى من غيره بالصبر على المكاره وتحمل العظائم ، ولما آل الأمر إلى هذا المآل فكان الاستعداد لغوائل الوضع الراهن بتعيين القائد الهاشمى تدبيراً دقيق الملاحظة .

ثم إنه لن يكون إنسان آخر غير عبيد الله بن عباس ، لا قيس ولا ابن قيس ولا غيرهما ، أشد حنقاً ولا أعنف تألباً على معاوية منه كأب قتل ولداه (الصبيان) صبراً فيما أملته فاجعة بسر بن أرطاة يوم غارته على اليمن ، فكان من الاستغلال المناسب جداً اختيار هذا القائد لقتال قاتل ولديه .

وأخيراً فإن جيش المقدمة الذى ولى قيادته عبيد الله هذا كان أكثره من بقايا الجيش الذى أعده أمير المؤمنين عليه السلام فى الكوفة لحرب أجناد الشام ثم توفى عنه ، وكان قيس بن سعد بن عبادة هو قائد ذلك الجيش فى زمن أمير المؤمنين (١) .

ولهذه السوابق أثرها فى توثيق الروابط الشخصية بين القائد والمقود ، وكان من السهل على القائد النافذ فى جنوده أن يجنح ، متى شاء إلى حرية التصرف التى لا تعبر عن اتصال إيجابى بالمركز الأعلى وهو ما كان يجب التحفظ منه كأهم عنصر فى الموقف ، على أننا لا ننسى أن قيساً وقف بين صفوف الجيش

---

(١) تاريخ ابن كثير .

يوم رجعت له قيادته فى مسكن يخيرهم بين الالتحاق بالإمام على الصلح وبين الاستمرار على حرب معاوية بلا إمام ، فأى احتياط كان أحسن من جعل القيادة فى غير هذا الرجل وجعله مع ذلك المستشار العسكرى للاستفادة من كفاءته ودهائه وهو ما فعله الإمام الحسن . أما أمر الإمام الحسن ألا يعتدى عبيد الله على معاوية بالحرب لسد مراوغاته حتى لا يستطيع أن يدعى أنه ما جاء للحرب وإنما جاء للتداول فى إصلاح أمر المسلمين ، كما نصت وصية الإمام على المشاورة .

وقد وقعت بعض أخطاء تاريخية يهمنا أن نبرزها فقد قيل إن الإمام الحسن أسند قيادة مقدمة الجيش إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر وضم إليه عشرة آلاف جندى ، وهذا يخالف ما أجمع عليه الرواة من أن قيادة المقدمة كانت لعبيد الله بن العباس بإشراك قيس بن سعد وسعيد بن قيس ، كما أن عدد المقدمة كان اثنى عشر ألفاً ، وإن كان رجال التاريخ قد اختلفوا فى تحديد الجيش الذى نزح مع الإمام ، فابن أبى الحديد يقول : « وخرج الناس فعسكروا ونشطوا للخروج وخرج الحسن إلى المعسكر واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه فجعل يستحثهم ويخرجهم حتى يلتئم المعسكر وسار الحسن فى عسكر عظيم وعدة حسنة حتى نزل دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال له : يا ابن عم إنى باعث معك اثنى عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر . . »

وذكر الطبرى وغيره أربعين ألفاً ، وجاء فى شرح النهج فى صدد عتاب المسيب للإمام الحسن على صلحه كما سيأتى ذلك تفصيلا : « فقال المسيب ابن نجية للحسن عليه السلام : ما ينقضى عجبى منك صالحت معاوية ومعك أربعون ألفاً » ويقول ابن الأثير فى الكامل : « كان أمير المؤمنين على قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام فبينما هو يتجهز للمسير قتل عليه السلام وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له . فلما قتل وبايع الناس ولده الحسن بلغه مسير معاوية فى أهل الشام إليه ، فتجهز هو والجيش الذين كانوا بايعوا علياً ، وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية ، وكان قد نزل مسكن ، فوصل الحسن إلى المدائن ، وجعل قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى على مقدمته فى اثنى عشر ألفاً . . . » . ويؤيد هذا أيضاً ابن كثير . وكذلك روى ابن قتيبة أن سليمان بن صرد ذكر للإمام الحسن عند عتابه أيضاً على الصلح : « أما بعد ، فإن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من أهل الفرق » وإن كان ابن قتيبة ينفرد دون غيره برواية المائة ألف عن سليمان بن صرد ، وهكذا اختلف رجال التاريخ فى عدد الجيش ، والأقرب إلى الصحة أن عدد جيش المقدمة هو اثنا عشر ألفاً ، وعدد المتطوعين بعد ذلك فى الكوفة أربعة آلاف ، ثم الفصائل التى تواردت على الحسن فى دير عبد الرحمن ، وهذه قرابة عشرين ألفاً .

على أن الاختلاف فى عدد الجيش ليس بذى أهمية لأن الجيش مهما كان عدده كثيراً ، إذا كان مختلف الأهواء ، فلا بد أن ينهزم ، ولا يجىء النصر

إلا بالإخلاص والإيمان والعقيدة ووحدة الكلمة ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله بتضامنها وتعاونها .

كما قيل إن الإمام الحسن تجهز لحرب معاوية بعد ثمانية عشر يوماً من وفاة أبيه ، والمرجح أن الإمام لم يستعد للحرب إلا بعد ما فشلت جميع الوسائل التى اتخذها لأجل السلم ، وتقدر هذه المدة بنحو شهرين على الأقل .

ويقول ابن كثير : إنه لم يكن فى نية الحسن أن يحارب . وهذا فى الأرجح غير صحيح لأنه لو لم يكن من رأيه الحرب لما بعث إلى معاوية تلك الرسائل التى يتهدده فيها ويتوعده بإعلان الحرب إن لم يدخل فى طاعته .

وبعد ما أسند الإمام القيادة العامة فى مقدمة الجيش إلى عبيد الله بن العباس انطلق عبيد الله يطوى البيداء مع الجيش حتى انتهى إلى (مسكن) فاستقام فيها ، وقابل العدو وجهاً لوجه ، وهنا قام معاوية بدوره من نشر المخاوف والأراجيف ، وكانت باكورة تلك الدسائس نشر العيون ليذيعوا الذعر والإرهاب ، وكانت دعايتهم الأولى هى :

« إن الحسن يكاتب معاوية على الصلح ، فلم تقتلون أنفسكم » .

وتمكن بهذه الوسيلة من الاتصال بعبيد الله بن العباس وجذبه إليه ، وقال له فى رسالة بعث بها إليه : إن الحسن قد راسلنى فى الصلح ، وهو مسلم الأمر إلىّ ، فإن دخلت فى طاعتى الآن كنت متبوعاً وإلا دخلت وأنت تابع[1]

---

(١) وذكر ابن أبى الحديد رسالة معاوية ونصها (إن الحسن سيضطر إلى الصلح وخير لك أن تكون متبوعاً ولا تكون تابعاً . . .) .

ولك إن أجبتنى الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك فى هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

وكان معاوية أحرص بشر على استغلال مآزق أعدائه « وكان إيمان معاوية بالسفالة البشرية إيماناً لا حدّ له ، وهو إيمان يقوم على الاعتقاد بأن أقوم الناس خلقاً ، وأشدهم عزماً ، وأنقاهم فضيلة قد تستغويه الأطماع ويذله الحرص فى ساعة من ساعات الضعف الذى يطرأ على النفوس ، وفترة من فترات الشك الذى لا ينفك عن مطاردة الناس ، ولا يسلم من غوائله أفاضل الناس وأعالى البشرية »(١) .

وكان فيما حذر به أمير المؤمنين عليه السلام زياداً ، كما جاء فى الكامل ، أن قال له : « وإن معاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر » .

وهكذا صرع الشعور بالخيبة والاستسلام للطمع الفتى الأصيل ، فإذا هو أبشع صور الخيانة المفضوحة والضعف المخذول .

وفى غلس الليل البهيم تسلل عبيد الله إلى معاوية ومعه بضعة آلاف من الجيش ، دخل دخول المهزوم المخذول الذى يعلم فى نفسه أى إثم عظيم أتاه ، وفى تقديرى أن فى عنق عبيد الله تقع المسئولية الكبرى ، فقد أدى تركه لجيش الإمام إلى زعزعته وتفلل وحداته واضطرابه ، وأصبحت البقية الباقية من الجيش تفتش عن قائدها ليصلى بها صلاة الصبح فلا تجده .

---

(١) مجلة العالم العربى – العدد الثانى – السنة ١١ .

ولما رأى قيس بن سعد ما حدث من الفتنة السوداء ، قام فصلى بهم صلاة الصبح ، وبعد الفراغ منها قام خطيباً ، فهدأ روعهم وأثابهم إلى الصواب والرشاد وقال فى خطابه :

« إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط ، إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتله ببدر فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصارى ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاه علىّ على البصرة ، فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجوارى ، وزعم أن ذلك له حلال ، وإن هذا ولاه علىّ على اليمن فهرب من بسر بن أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن ما صنع »[1]. وكان قيس مؤثراً جداً ، وكان من تأثيره على سامعيه فيما ثلب به عبيد الله بن العباس أن « تنادى الناس : الحمد لله الذى أخرجه من بيننا » .

ومما لا شك فيه أن خذلان عبيد الله بن العباس كان العامل الأساسى الذى سبب تفكك الجيش وتخاذله ، فقد طعن الجيش العراقى وفتح باب الخيانة والغدر ، ومهد السبيل للالتحاق بمعاوية . وقد وجد ذوو النفوس الضعيفة مجالا واسعاً للغدر بخياناتهم للإمام ، فاتخذوا من غدر عبيد الله وسيلة لذلك فهو ابن عم الإمام ومن أقرب الناس إليه ، وقديماً قد قيل :

إذا فاتك الأدنى الذى أنت حزبه ... فلا عجب إن أسلمتك الأباعد

وكان لغدر عبيد الله فى نفس الإمام حزن بالغ وأسى مرير ، فإنه لم يرع

(١) مقاتل الطالبين .

الدين ولا الوتر ولا الرحم الماسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من قائده الأعلى ، ولا الميثاق الذى واثق الله عليه فى البيعة منذ كان أول من دعا الناس إلى بيعة الحسن فى مسجد الكوفة ، ولا الخوف من حديث الناس ونقمة التاريخ .

هل اكتفى معاوية بخيانة عبيد الله بن عباس ؟ قطعاً لا . فقد تلوّن معاوية تلوناً مخيفاً ، فعمد إلى سلة أكاذيب يختار منها ما يشاء ، ثم يبعث بها إلى معسكرات الحسن . . . فكان يدس إلى عسكر الحسن فى المدائن من يتحدث : إن قيس بن سعد – وهو قائد مسكن بعد فرار عبيد الله بن عباس – قد صالح معاوية وصار معه ، ويوجه إلى عسكر قيس فى مسكن من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه . ثم ينشر فى إشاعة أخرى على معسكر المدائن « ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا » .

وهكذا بلغ معاوية بفتنته ما أراد .

وما منى الإسلام منذ ضرب بجرانه على جزيرة العرب بأفدح من هذه النكبة التى يترنح بها موقف الخلافة الإسلامية بين تثاقل الجنود ، وتخاذل الزعماء ، وخيانة القائد ، وفتن العدو .

إنها الظروف القاهرة التى بدأت تنذر بأكداس من الخطوب والنكبات والتى ستجر حتماً إلى نهاية تاريخ قصير كان أنصع وأروع صفحات التاريخ الإسلامى وأبعدها ارتفاعاً فى المجد ، وأقربها أسباباً إلى الفخر ، إنها الكارثة التى تؤذن باللحظة المشئومة فى تاريخ الإسلام ، واللحظة القائمة على عملية

الفصل بين العهدين : عهد الخلافة بمميزاتها ومثالياتها ، وعهد (الملك العضوض) وبلائه المقدر المفروض .

وكان الحسن عليه السلام أعرف الناس بقيم هذه المعنويات المهددة ، وأحرص المسلمين على حفظ الإسلام ، والرجل الحديدى الذى لا تزيده النكبات المحيطة به إلا لمعاناً فى الإخلاص ، واتقاداً فى الرأى ، واستبسالا فى تلبية الواجب وتفادياً للمبدأ .

ولم يكن لتساوره الحيرة على كثرة ما كان فى موقفه من البواعث عليها ، ولا وجد فى صدره حرجاً ولا تلوّماً ولا ندماً ، ولكنه وقف ليختار الرأى ، وليرسم الخطة وليتخذ التدابير .

يقول ابن كثير : « وهو – يعنى الإمام الحسن – فى ذلك الإمام البار الراشد الممدوح ، وليس يجد فى صدره حرجاً ولا تلوّماً ولا ندماً ، بل هو راض بذلك مستبشر به » .